الاحتلال الوندالي لبلاد المغرب القديم ومقاومة المور

تمهيد

1- التعريف بالوندال

2- أسباب الاحتلال الوندالي لبلاد المغرب القديم

3- مراحل الاحتلال الوندالي وحدود السيطرة

4- دولة الوندال في بلاد المغرب

5- الممالك المورية وموقفها من الاحتلال الوندالي

من الدراسات الحديثة والمواضيع المثيرة للبحث التي كانت محط اهتمام المؤرخين والتي دفعتهم إلى البحث في تاريخ بلاد المغرب القديم، دراسة التاريخ الحضاري للمنطقة في عهد الاحتلال الوندالي، ذلك ربما للتساؤلات الكثيرة عن هذه الشعوب الجرمانية التي اكتسحت الإمبراطورية الرومانية في أوروبا وقضت عليها، وسيطرت على أغلب أقاليمها ووصلت في توسعاتها إلى بلاد المغرب القديم

1- التعريف بالوندال :

الوندال شعب جرماني من أصول نرويجية، ويدعي الوندال كغيرهم من الشعوب الجرمانية الأخرى انتسابهم إلى أصول مقدسة، وجدهم هو الإله هرمينو (Hermino) ابن الإله مانوس (Manous) ابن الإله تويستو (Twisto)، هاجروا من موطنهم الأصلي على بحر أزوف(Azouf) عبر ألمانيا وفرنسا ثم إسبانيا، واعتنقوا خلال هجرتهم النصرانية الأريانية، وكانوا أعداء للكاثوليك، كما يذكر أنهم دمّروا كل شيء وجدوه في طريقهم، خاصة المشآت العسكرية وقلاع المدن في بلاد المغرب، و حيث دمّروا أسوار لبدة(Liptis) وصبراتة(Sabrata) وربما أويا(Oea) ، وما يوحي بذلك قطع النقود التي وجدت في لبدة، وهي دليل على رغبة الوندال في احتلال مقاطعة طرابلس.

وهناك من المؤرخيين من يرى أن موطنهم الأول كان في إقليم اسكندنافيا، وذلك قبل القرن الثاني قبل للميلاد، ثم استقروا بعدها في إقليم جنوب نهر الأودر (Oder) ، ثم انتقلوا بعد ذلك إلى الساحل الشمالي

بحر البلطيق وأقاموا هناك إلى غاية منتصف القرن الثاني ميلادي، ومنها انتقلوا إلى إقليم هنغاريا ثم إلى بلاد الغال مع بداية القرن الرابع ميلادي، ثم إلى شبه الجزيرة الأيبيرية سنة 409م، ومكثوا فيها إلى غاية سنة 429م تاريخ انتقالهم إلى بلاد المغرب القديم.

2- أسباب الاحتلال الوندالي لبلاد المغرب القديم :

تعددت وجهات نظر المؤرخين في أسباب ودوافع الاحتلال الوندالي للمغرب القديم، فمنهم من رأى أن الأسباب اقتصادية وأخرى سياسية متعلقة بالوندال في حد ذاتهم، وهناك من ربط أسباب الاحتلال بالظروف التي تمر بها الإمبراطورية الرومانية وكثرة والانقلابات العسكرية وحروبها مع القبائل المورية في بلاد المغرب، وفيما يلي أهم أسباب الاحتلال الوندالي لبلاد المغرب القديم.

- يرى كثير من المؤرخين أن من أهم الأسباب التي دفعت الوندال إلى احتلال بلاد المغرب هو الهدف الاقتصادي وأهم شيء حفز الوندال في الانتقال من جنوب شبه الجزيرة الأيبيرية إلى بلاد المغرب هو الثراء و التنوع الاقتصادي الذي تزخر به المنطقة وعرف ذلك من خلال الاحتكاك الأول بالمنطقة وسكانها فيما بين 425-426، وذلك لما كانت عليه من أهمية اقتصادية خاصة في إنتاج الحبوب و الزيتون و الكروم.

- و ما زاد من رغبة الوندال في احتلال بلاد المغرب انقلاب الكونت بونيفاس على السلطة الرومانية وربط علاقات تحالف مع الوندال واستدعائهم لاحتلال واقتسام أقاليم المغرب القديم، حيث كان يهدف للانفصال و الاستقلال بالمنطقة عن سلطة روما، وقد قبل جنسريق عرض الكونت بونيفاس وبدأ يحضر للحملة.

- ومن أسباب الحملة أيضا خوف الملك جنسريق من هجمات القبائل الجرمانية الأخرى على بلاد المغرب وضياع فرصة الاستيلاء عليها، خاصة بعد التعرف على خيراتها وما كانت تزخر به، فكان يرى فيها المكان الأمثل للاستقرار وتكوين دولة مستقلة، بعيدا عن الحروب و الصراعات التي عرفتها القبائل الوندالية في شبه الجزيرة الأيبيرية ضد القوط .

- كذلك من الأسباب نذكر الضغط الكبير الذي مارسه القوط الغربيون على القبائل الوندالية في شبه الجزيرة الأيبيرية، وكثرة الحروب مع قبائل السَويف ، أي أن الأوضاع في شبه الجزيرة والاستقرار فيها بات مستحيلا، فأوجب ذلك على الوندال البحث عن مناطق أخرى، فكانت منطقة بلاد المغرب من بين إحدى الاختيارات الوندالية للاستقرار وتكوين دولة مستلقة.

- كما أن هجمات القبائل المورية المتتالية على المدن والمقاطعات الرومانية زاد من رغبة جنسريق في احتلال بلاد المغرب واغتنام الضعف الذي دبَ في الإمبراطورية الرومانية بسبب كثرة التمردات عليها، واغتنام فرصة الثورات المورية ضد السياسة الرومانية والتي أضعفت كثيرا الجيوش الرومانية وهو ما سيسهل عملية الاحتلال.

3- مراحل الاحتلال الوندالي وحدود السيطرة:

تذكر المصادر أن الحملة الوندالية على بلاد المغرب انطلقت في ماي 429م، حيث غادرت الجيوش الوندالية مدينة قادس باتجاه موريطانيا الطنجية، كان عدد الوندال الذين انتقلوا والى بلاد المغرب ثمانون ألف وندالي، من بينهم رجال و نساء أطفال وشيوخ ، وكان تعدادهم مابين خمسة عشر ألف إلى عشرين ألف فرد، وعند وصول الجيوش الوندالية إلى موريطانيا الطنجية لم تتعرض لأي هجوم أو رد فعل من القبائل المورية ولا من طرف الجيوش الرومانية، الأمر الذي يؤكد العلاقات الحسنة والتحالفات التي قام بها جنسريق مع الكونت بونيفاس قبل الحملة، أو ربما أن هذا الأخير أخلى المنطقة من الجنود الرومان لكي يتفرغ لمواجهة الجيش الإمبراطوري .

وقد سارت الجيوش الوندالية بعد ذلك نحو الشرق، انطلاقا من طنجة حيث وصلت بعد أربعة أشهر من السير إلى ألتافا، قاطعة بذلك مسافة 700 كلم، وهو ما يعادل قطع مسافة ثمانية كليميترات في اليوم حيث وصلت إلى موريطانيا السطايفية ثم إلى نوميديا سنة 430م، في الوقت الذي قام به الكونت بونيفاس بحملة انقلابية ضد الجيوش الرومانية في هيبون ريجيوس سنة 430م، في الوقت لم ترسل فيه الإمبراطورية الرومانية الغربية أي إمدادات تذكر لإيقاف الزحف الوندالي على الأقاليم الرومانية في بلاد المغرب، ولم تنظم أي حملة على الوندال لإنقاذ المنطقة من السيطرة الوندالية، غير الإمدادات التي أرسلها تيودوس الثاني (TheodoseII) إمبراطور روما الشرقية، ولكنها لم تف بالغرض حيث لم تمنع الجيوش الوندالية من السيطرة على أقاليم نوميديا والوصول إلى هيبوريجيوس في حدود سنة 531م التي حاصرها جنسريق لمدة 14 شهرا إلى أن أسقطها واتخذها عاصمة له، وهو التاريخ الذي توفي فيه القديس أوغسطين.

وأمام هذا الوضع المتأزم غيرت روما من سياستها الدفاعية، وقامت بإبرام معاهدة صلح مع القائد الوندالي جنسريق سنة 535م، اعترفت له وللقبائل الوندالية فيها بالمناطق التي سيطروا عليها، وذلك بعد فشل محاولات القائد أسبار (Aspare) في القضاء على الوندال.

حيث وجد الملك جنسريق في هذه المعاهدة الفرصة لتهيئة الجيوش، وتعبئة القبائل المورية المناهضين لسياسة الرومان للقيام بالحملة الكبرى، وتحقيق الهدف الأكبر وهو الوصول إلى احتلال العاصمة قرطاج والقضاء على سلطة روما في بلاد المغرب، وهو ما تم فعلا سنة439م.

حيث استطاع جنسريق أن يسيطر على قرطاج ويجبر روما على توقيع معاهدة استسلام مع الإمبراطور فالونتينيان الثالث (Valentinien III)، و الاعتراف بالسلطة الوندالية على بلاد المغرب سنة 442م ، حيث غادرت فلول الوندال بعد هذا التاريخ المنطقة الغربية والوسطى من بلاد المغرب، وانتهى بها الأمر إلى الاستقرار في المنطقة الشرقية التي كانت أراضيها أكثر خصوبة وازدهارا كما تحتوي على مختلف المرافق الحضارية و العمرانية التي ورثتها عن الرومان

اما حدود السيطرة الوندالية فقد أكدت نتائج الأبحاث و الحفريات التي قامت بها فطيمة خضرة أن كل المناطق من موريطانيا والى الحدود الوهرانية الغربية كانت تحوي ممالك مستقلة تسيطر على الإقليم، الأمر الذي ينفي السيطرة الوندالية في الجزء الغربي من بلاد المغرب لقديم، حيث خضعت المناطق الداخلية لسيطرة السكان المحليين الذين كانوا مستقرين في الجبال وعلى حدود خط الليمس الروماني، وقد تحالفوا مع الوندال بهدف استرجاع أراضيهم التي سلبتها منهم الإدارة الرومانية.

ويقر أغلب المؤرخين المحدثين بأن السيطرة الوندالية في بلاد المغرب لم تتجاوز مقاطعة البروقنصلية و البيزاكينا وجزء من الشريط الساحلي من طرابلس، وجزء من شرق نوميديا وصولا إلى عنابة وما جاورها، أما باقي المناطق الأخرى فقد كانت تحت سلطة القبائل المورية التي سيطرت عليها مع بداية الحملة الوندالية

ويمكن تأكيد حدود مملكة الوندال في شمال إفريقيا من خلال ما أورده فيكتور دي فيتا في مؤلفه، والذي ذكر فيه المناطق التي كانت خاضعة لروما إلى غاية معاهدة 442م، وهي المعاهدة التي أبرمت بين جنسريق و فالونتينيان الثالث حيث يذكر فيكتور دي فيتا أن الملك جنسريق احتفظ بولاية البيزاكينا وجيتوليا وأباريتانا مع جزء من نوميديا و منح لجيشه البروقنصلية التي كانت تسمى زغوان بينما ظلت الموريطانيات الثلاث السطايفية القيصرية و الطنجية مع نوميديا الغربية تحت سلطة الإمبراطورية الرومانية.

ويمكن القول أن نوميديا كانت مقسمة بعد سنة 455م إلى قسمين، جزء منها كان تابعا للوندال والجزء الآخر كان خارجا عن سيطرتهم، الأمر الذي يقودنا إلى القول أن الحدود الوندالية ربما وصلت إلى غاية شرق نوميديا ولم تتعداها إلى غاية سقوط الوندال سنة 534م، أما الأجزاء الأخرى فقد استرجعتها مختلف القبائل المورية.

4- دولة الوندال في بلاد المغرب:

اتخذ القائد الوندالي جنسريق في بادئ الأمر هيبوريجيوس عاصمة له قبل سنة 439م، بعد توقيع المعاهدة مع الرومان سنة 435م إلى غاية الاستيلاء على قرطاج سنة 439م، وأصبحت هذه الأخيرة عاصمة جديدة للوندال في بلاد المغرب وعاصمة خلفاء جنسريق من بعده .

نظم الملك جنسريق مملكته تنظيما إداريا محكما حيث حافظ على مختلف الدواوين التي ورثها عن الإدارة الرومانية في بلاد الغرب، هذه الدواوين (السياسية، الاقتصادية والعسكرية) التي انصب اهتمامها وقوّتها وطاقتها في استخلاص الضرائب بصفة خاصة وفي استغلال اقتصاد المنطقة .

كما استولى على أخصب الأراضي وأغنى المناطق الفلاحية في قرطاج ووهبها لولديه بعد أن اقتطعها من الملاك الرومان الكبار في المنطقة، أما الأراضي الفقيرة و التي ليس لها مردود فلاحي كبير فقد تركها لملاكها مقابل دفع الضرائب، والجزء الآخر منحه لرجال الدين وللقبائل الوندالية و القادة العسكريين في المناطق التابعة لهم .

كما أحدث الملك جنسريق ديوانا خاصا بالشرطة الأخلاقية مهمته محاربة كل مظاهر الفساد الأخلاقي في المملكة، يحث على آداب حضور الملاعب و المسارح ومعاقبة كل من يتجاوزها، كما حارب العنف وعاقب كل من له علاقة بأعمال الشغب، وقد انتعشت الحياة الاقتصادية و الحركة التجارية في الأسواق خاصة في قرطاج نتيجة الأمن الذي عرفته المملكة الوندالية طيلة فترة حك الملك جنسريق.

وفيما يخص الحرية الدينية، فقد حافظ الملك جنسريق على المعاهدة التي أبرمها مع الرومان، التي تقضي بالسماح لكافة رجال الدين الكاثوليك المنفيين بالعودة إلى أسقفياتهم وفتح كنائسهم، وكانت هذه المعاهدة سنة 474م واستمرت إلى غاية وفاة الملك جنسريق لتتغير الأوضاع بعدها في عهد خلفائه .

استطاع الملك جنسريق بقوته وحنكته من تحويل البحر المتوسط إلى بحيرة وندالية، وكان ذلك عاملا هاما في التطور الاقتصادي والاجتماعي للقبائل الجرمانية في أوروبا بفعل العلاقات التجارية التي كانت تجمعهم، وللقبائل المورية في بلاد المغرب القديم، حيث تطورت التجارة وأعمال القرصنة التي كثيرا ما شاركت فيها القبائل المورية، الأمر الذي يوحي بطبيعة العلاقات السلمية بين الطرفين، إذ لم تتعرض الممالك المورية لاضطهادات أو ثورات ضدها من طرف الوندال، فقد اقتصرت ربما على رجال الدين الكاثوليك فقط وذلك في إطار الصراع الديني بين الكاثوليكية و الأريوسية .

5- الممالك المورية وموقفها من الاحتلال الوندالي:

يذكر المؤرخون وعلى رأسهم كورتوا وجود عدة ممالك مورية مستقلة عن الوندال، ظهرت وبرزت بمجرد سقوط النظام الروماني في بلاد المغرب على يد جنسريق، والتي يحصيها كورتوا وعددها ثمان ممالك وهي :

مملكة ألتافا، مملكة الجدارات، مملكة الونشريس، مملكة الحضنة، مملكة الأوراس، مملكة النمامشة، مملكة تالة (الفراكسيس)، و مملكة كباوون في طرابلس.

من خلال ما ورد في المصادر وبالخصوص ما ذكره فيكتور دي فيتا في مؤلفه تاريخ الاضطهاد الوندالي ، نفهم أن العلاقات بين القبائل المورية و الوندال إنحصرت في المجال السياسي وذلك مع بداية الاحتلال، وكان أساس هذه العلاقات هو التَحالف بما تقتضيه مصلحة الطرفين، وما يؤكد ذلك السياسة السلمية التي سار عليها الملك جنسريق من بداية الحملة التي قادها الى بلاد المغرب وطول مدَة إنتقال الوندال من الغرب إلى الشرق والى غاية تاريخ إحتلال قرطاج سنة 439م .

هذا ولا نكاد نجد في المصادر التي عاصرت الفترة الوندالية في بلاد المغرب القديم أي ذكر لصراعات وحروب بين الوندال والمور طيلة فترة حكم الملك الوندالي جنسريق، عكس العلاقات التي ستربط المور بالوندال بعد وفاته سنة 477م.

لكن بموت جنسريق تغيرت سياسة الملوك الوندال اتجاه الممالك المورية، وبدأ الملوك الوندال في مد حدود المملكة الوندالية والتوسع على حساب الأراضي الداخلية التابعة لقبائل المور، الأمر الذي أدى إلى تعكير صفو العلاقات، لتبدأ بذلك سلسلة المعارك والثورات والتي ستستمر إلى غاية الحملة البيزنطية ونهاية الوندال في بلاد المغرب سنة 533م ، وما يظهر سوء العلاقات بين الطرفين الحملة البيزنطية على بلاد المغرب، حيث سعت مجموعة من القبائل المورية إلى مدَ يد المساعدة للبيزنطيين وربط علاقات تحالف مع القائد البيزنطي بليزاريوس ضد الملك الوندالي جلمير.